

زفارة الاربعفن: الءءمة الءسفنفة فوق كل الشبهاة

2016-11-16 زهراء وءفءف

فف اربعفن الإنءصار؁ جمفع القلوب آهفو الى كعبه العشق كربلاء آءءء الءزن والولاء وآءءءن قصفءه الولفاء الموعوء لظهور الءف سفناءف وفززل كفن الأرض؁ بء جملة "فا لآارات آءف".

آءءمآ انا وأصحابف الآلاآ بكل فآر نآلذآ من ارآشاف كأس الآعب؁ نآطو آاءة المآء قاصءفن الءسفن؁ بعءما كافننف الله لآوسلاآف بمولاف الءسفن ورزقنف ذرفة صالحه؁ أشعر وكأن الارض آقبل انامل الزوار؁ وفعزف الهواء من آولهم معزوفة الولفاء؁ وكأن الطبفعة آشارك فف هءه الشعفرة؁ وآآفف الوعد؁ وآءءء ولانها وهف آرءء هنفئاً لكم فا زائرفن الءسفن.

آشع المواكب نور الءءمة على طول الطرفق؁ فلو ارآفعت عن مسآوى الارض قلفلاً لوءءآ الارض آنبسط لآلك الءاءة الآف آنآهف الى المآب.

ساعآف آشفر الى الآنفة بعء منآصف اللفل آوقفنا عنء عموء الكهرباء نآأمل الطرفق؁ ورائآه الءآان آسكر القلب قبل العقل؁ وذلآ البءر الءف فآوسط السماء وكأنه فآسءنا على اللقاء الءف سجمعنا بالآفبب والأآر الءف سسنعوء به الى الوطن.

الآو كان بارءاً آءا؁ فشعرت بأنف آآذآ القرار الصآفح عنءما آرآآ عائلآف ولم أصطآبهم معف الى الزفارة؁ فطول الطرفق كان من الممكن أن فعرضهم للآعب؁ كما إن قسوة الآو كان من المآآمل أن فسبب لهم الزكام.

وانا فف مسفرف الى المآبب؁ رأفآ ما اءهلنف عن آق وآقفة؁ أطفال فآلسون فف آافاآ الطرفق فآملون على رؤوسهم أواني الطعام؁ فآءمونها الى زائرفن الءسفن بكل آب وبعآزاز؁ آسائلآ مع نفسف هل الأهالف لا فآشون على أطفالهم قسوة الآو وآقل هءا الإناء!.

سرت خطوات أكثر لأرى تجمع من الشباب يشبهون الجنة, دنوت منهم أكثر لأرى ماذا يفعلون او بالأحرى ماذا يقدمون لزائرين الحسين, فصعقني الموقف!, شباب بكامل العز والتواضع يجلسون على الارض, تاركين غرور الدنيا ومنشغلين في تنظيف أحذية الزائرين!, دمدمت مع نفسي قائلاً, ماذا فعل حب الحسين فيهم ليفعلوا كل هذا, هنيئاً لكم يا خدام الحسين.

دنوت من إحدى الخيام لنقضي ليلتنا فيها, فوجدتها تغص بالزوار, عدت أدراجي لأنتقل الى خيمة أخرى, فجأة توقفت سيارة نزل منها رجلٌ أشيب الشعر, يبدو على ملامحه الوقار قال لي بالحرف الواحد (هلا بزوار اباعبداللّٰه) تفضلوا معي الى البيت, وسنكون في خدمتكم ان شاءالله, دون أي تردد مني ومن أصحابي, رافقنا الرجل الى بيته الذي لم يكن بعيداً عن الجادة, دخلنا البيت فاستقبلتنا زوجته بترحيبات وكلمات طويلة لم أفهم معناها بشكل كامل بسبب ضعف لغتي العربية, قدمت لنا سفرة تضم ما الذ وطاب من الطعام, وفجأة دخل علينا شابين بعمر الزهور يحملون في أيديهم وعاء من الماء(طشت) ليبدووا في غسل وتديك أقدام الزائرين الذين أتعبهم مشقة الطريق, وعندما سحبت قدمي رافضاً هذا العمل لاني وجدته لايليق بمقام أهل العراق أن يدلكو أقدام الناس, قال لي احد الشابين والرجاء في عينيه: خدمة الزوار لاتقلل من شأننا بل تزيد من قيمتنا, فخدمتكم فخر لنا وشرف, لاتحرمنا هذا الأجر يا عم.

إبتلعت دمعتي وأنا اتأمل كلمات هذا الشاب, وأجبتة بكلمات شبه مفهومة, ماذا فعل حب الحسين في العالم, هنيئاً لكم هذه العزة يا اهل العراق.

كنت أنظر اليه وهو منهك في تديك قدمي التي كانت متورمة بسبب قسوة الجو وطول الطريق, ملامح الفخر مرسومة على وجهه, وكأنه ملك على عرشه.

فجأة سمعنا أصوات تتعالى من خارج الغرفة, خرجنا مسرعين كي نعرف ما يحدث, شاهدت صاحب البيت الذي أتى بنا الى هنا في حوار ثقيل مع شخص اخر, الموقف لم يتعدى العشر دقائق حتى دخل صاحب البيت الى داره, وعندما وجدني واقفا والحيرة تسكن ملامح وجهي, إبتسم إبتسامة عميقة ورحب بي مرة أخرى وهو يوصي ولديه في تلبية جميع إحتياجاتنا, وهو يؤكد عليهم ايضاً على عدم التقصير مع زائرين الحسين.

طلبت من الشاب أن يوضح لي ما حصل بين والده وذلك الرجل, لأنني لم أفهم ما حصل بسبب سرعتهم في الكلام وصعوبة اللهجة العراقية, فشرح لي ما حصل بطريقة مبسطة وكلمات شفافة حيث قال: (إن ذلك الرجل يطلبنا ثأراً, لأن اخي قتل إبنه, و كان يريد أن يأخذكم الى بيته ليتشرف بخدمتكم لأن في هذه الليلة بيته أصبح خالياً من الزائرين, ولكن والدي لم يريد أن يخسر هذا الأجر ويفرط بهذه الخدمة الجليلة, فلم يوافق على طلب الرجل.

فقال له أعطني زائريك وسأتنازل عن دم ولدك ولا اريد منكم أي قصاص, كما إن والدي لم يرى أخي منذ فترة طويلة وكان من الممكن أن يعيد الأمان له ويقر عينه بلقيها, ولكن جواب والدي للرجل كان:

- قاصصه.... لن أعطيك الزائرين).

تشنجت حنجرتي بعدما سمعت كلام الشاب, حاولت أن انطق بأي كلمة ولكن خذلني لساني, فما وسعني الا ان ارد عليه بدموعي الكهلى التي غرقت وجنتي من تلقاء نفسها, لم يبادرني الشاب سوى بنظرة رضا تجاه موقف والده, واستمر في الخدمة من تهيئة الفراش والمأكل, و... الخ.

على رغم التعب الذي كان ينخر جسدي وجفائي للنوم لمدة يومين كاملين, لم يجراً السهاد أن يخطو ناحيتي, فالتساؤلات كانت ترمي بنفسها على جدران ذاكرتي واحدة تلو الاخرى, حتى بات عقلي أشبه ببركة كبيرة من الإستفهامات والتعجب, فالموقف الذي حصل مع صاحب البيت وصاحب الثأر لم يشأ ان يذهب عن بالي لحظة واحدة, تجسدت أحداثه في عقلي, متشبثاً بأركان ذهني, يرسم تفاصيله بفرشاة الإحساس على أوراق قلبي, أي مقام يناله زائر الحسين وخادمه؟!، الذي لم يقبل على اثره ان يمنح صاحب البيت زائرين الحسين مقابل حياة إبنه!!؟.

في الصباح الباكر وقبل أن تشق الشمس سماء الوجود غادرت البيت خفية, فقد كنت خجلاً من نفسي ولا قدرة لي في أن اضع عيني بعين صاحب البيت, بعدما قدم لي هذا الرجل صفة روح يقضني بها من سبات النفس.

أستمررت في السير عدة ايام وانا اندب أفكارى الحمقى عن حب الذات, والخوف على نفسى وأهلى من قساوة الجو ومشقة الطريق, ونسيت بأن الحسين ضحى بنفسه وعياله من أجل الإصلاح فى امة جده, وإن مسيرة الأربعين ماهى الا صرخة حق فى وجه العالم, وتغافلت بأننا لابد أن نضحى بالغالى والنفيس فى ثبات الرسالة الإنسانية هذه.

ما أن وصلت الى كعبة العشق, رفعت يدي الى السماء وانا اجر روى التعبه بأذيال الخجل, فحرمت على نفسى الدخول, الا بعدما نذرت ولدى الوحيد الذى انتظرت مجيئه الى الحياة اربعة عشر سنة فى الخدمة الحسينية, قاطعاً العهد على نفسى بزيارة الحسين أنا وعيالى فى كل عام ما دمنا أحياء.